بعض جوانب التجديد في الفكر الإسلامي

بقلم

دكتور أحمد محمود صبحي

— ١ —

في حديث للرسول عليه الصلاة والسلام: « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (سنن أبي داود) ، قبل الشروع في عرض بعض جوانب التجديد في الإسلام لا بد من تحديد دقيق لمفهوم التجديد لأن مثله كمثل كثير من الألفاظ الشائعة الاستخدام التي كلما كانت أشيع استخداماً كانت أبعد عن التحديد أو الاتفاق على معناها . ولتحديد اللفظ تحديداً مانعاً لا بد من ذكر ما لا يتدرج تحته.

نستبعد من مفهوم التجديد تصورات ثلاثة:

التصور الأول : أن يقاس الإسلام على أي دين آخر ، والمسيحية على وجه الخصوص ، أي أنه من الخطأ تصور التجديد في الإسلام على نحو تصور الإصلاح الديني الذي قام به مارتن لوثر ، هناك اختلاف جوهري بين الإسلام والمسيحية بشأن التجديد العقائدي ، فالإسلام دين قد اكتملت عقائده كما تحددت أركانه في عهد الرسول : « اليوم أكملت لكم دينكم .. » بينما المسيحية لم تكتمل عقائدها في عهد المسيح[1] يقول الدكتور محمد إقبال :

---

(١) اكتملت العقائد المسيحية بعد المؤتمرات التي عقدتها المجامع المسكونية ابتداء من القرن الرابع الميلادي حتى القرن السابع وذلك لتحديد طبيعة المسيح (صلة اللاهوت والناسوت فيه) ثم تحديد قانون الإيمان المسيحي (خطيئة آدم – صلب المسيح – عقيدة الفداء) وكذلك سر الثالوث الأقدس وسر التجسد .

ينبغي أن نوضح الفارق بين التجديد وبين الإصلاح الديني في أوربا، ذلك أن أية محاولة تجديدية كي تبقى في فلك الإسلام ولا تتجاوز حدوده فإنها ينبغي ألا تعدل من أصوله ما دام القرآن له صفة التأكيد فيما تناوله من تشريعات وما دام النص قد انتهى برسول الله ، إن عدم التثبت في رواية الإنجيل أو الاتفاق على رواية واحدة له أتاح ثغرات عديدة فدخلت المسيحية آراء ومعتقدات أصبحت على مر الزمن جزءاً من المسيحية ذاتها ، كمبدأ الاعتراف وصكوك الغفران ، الأمر الذي أتاح الفرصة لإصلاح لوثر ، أما في الإسلام فإن ختم الرسالة الإلهية وإعلان اكتمال الدين يعني أن ليس هناك تطور في الإسلام ذاته.. على أنه إذا كان الإسلام لا يشابه المسيحية في ذلك فليس هناك ما يمنع من الإفادة مما تعرضت له الحضارة المسيحية من أخطاء زمن مارتن لوثر ، إن زعماء الإصلاح في الدين قد يتجاوزون في تحمسهم لتحرير الفكر الحدود الصحيحة للإصلاح إذا ما انعدم ما يكبح جماح حميتهم الفتية[1] .

فالمسيحية إذن ليست فيها صيغة واحدة بصدد الأناجيل الأربعة وليس الأمر كذلك في الإسلام ، والمسيحية لم تكتمل عقائدها في عهد المسيح بينما الإسلام قد اكتمل عقائداً وأركاناً في عهد الرسول ومن ثم فلا مجال لمذهب ديني في الإسلام يعدل من عقائده وأركانه تعديل البروتستانتية للكاثوليكية .

أريد أن أقول أن أية حركات جاءت بعد الإسلام وأدخلت على عقائده أو أصول الدين فيه أو حتى فروعه أدنى تعديل لا يمكن أن تندرج تحت مفهوم التجديد ولا تعد مذاهب إسلامية ، في ضوء ذلك تستبعد البابية والبهائية اللتان نقضتا مبدأ ختم النبوة وانقطاع الوحي في الإسلام فضلاً عن أن كلاً منهما قد جاءت بكتاب جديد وأحدثتا تعديلاً جوهرياً في أركان الدين كالصلاة والصوم والزكاة والحج .

التصور الثاني الذي يجب استبعاده عن التجديد « Reconstruction »

---

(1) Iqbal (Mohamed) : Reconstruction of the religions thought in Islam p. 84.

هو تصور التحديث « Modernization » أو التغريب « Westernization ».

إنه من المعلوم أن الحضارة الأوربية الحديثة قد مارست ضغطاً ثقافياً وفكرياً على حياة المسلمين فضلاً عن ضغطها السياسي والعسكري ، وكان من الطبيعي أن تظهر دعوات تدعو إلى الانفتاح على حضارة الغرب إن أراد المسلمون لأنفسهم اللحاق بحضارة الغرب ولا حرج في ذلك ولكن لقد انبثقت عن ذلك دعوات تدعو إلى تطويع قيم الإسلام وعقائده للفكر العربي، استشهد على ذلك بموقفين :

الموقف الأول : من مصطفى كمال أتاتورك فقد أرادت إحدى الهيئات تكريمه بإقامة تمثال له الأمر الذي أثار رجال الدين فكان أن رد مصطفى كمال : إنه إذا كان ذلك محرماً في أول الإسلام لقرب عهد الناس بالوثنية فإنه غير محرم اليوم لأنه لا بد للأمة التركية من الاشتغال بنحت التماثيل لأنه من فنون حضارة العصر الضرورية[1] .

الاعتراض على هذا الموقف ليس من ناحية المضمون إذ أن الشيخ محمد عبده كان قد ذهب إلى رأي مماثل ، ولكن الاعتراض من ناحية الشكل ، إذ المرجع في الحكم على جعل الأحكام في الإسلام متفقة مع مقتضيات العصر الحديث ليس هو الحاكم، حتى لا يكون تفسير الإسلام أو تجديده راجعاً إلى الهوى السياسي ، وإنما إلى علماء الدين إذ لهم العلم بالمسائل الدينية ما يمكنهم من الإفتاء ، من حق كل مسلم أن يفهم الدين ولكن ليس من حق كل مسلم حاكماً كان أو محكوماً أن يفتي في مسائل الدين إذ أن الدين مثله في ذلك كمثل أي علم من العلوم الحديثة كالطب لا بد من الرجوع فيه إلى المختصين من أهله ، ولا يعني ذلك دعوة إلى تكوين طبقة كهنوتية تحتكر العلم بالدين وتفسيره وإنما فقط أن يدلي في مسائل الدين من لديه علم في الدين وتفقه يمكنه أن يتحمل مسئولية الإفتاء.

---

(1) Charles Adams : Islam and modernism in Egypt p. 101.

وانظر الترجمة العربية للأستاذ عباس محمود : الإسلام والتجديد في مصر ص ١٨٣ .

الموقف الثاني يتصل بالمضمون لا الشكل ، وهو موقف الدكتور طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي الذي أثار ضجة في العشرينات من هذا القرن . دعا الدكتور طه في هذا الكتاب إلى اصطناع مناهج النقد كما هي معروفة في الغرب وفقاً لعبارة ديكارت : ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق إلا إذا بدا أمـــام العقل واضحاً متميزاً، يقول الدكتور طه حسين في كتابه المذكور : يجب حين نستقبل البحث في الأدب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، أريد أن أقول أني سأسلك في هذا البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيمـــا يتناولون من العلم والفلسفة، أريد أن أصطنع هـــذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء، ثم طبق منهجه هذا على التاريخ، ولما كانت الوثائق التاريخية لا تكشف عن حقيقة وجود بعض الأنبياء فقد ذهب إلى القول أن موقف العلم – أي علم التاريخ – لا يكشف لنا عن وجود إبراهيم وإسماعيل كشخصيتين تاريخيتين[1] .

يهمني بهذا الصدد أن أذكر ما قاله الدكتور طه حسين حين استدعي للتحقيق معه ، إذ قال : إنه كمسلم لا يرتاب في وجود إبراهيم وإسماعيل وما يتصل بهما مما جاء في القرآن ولكنه كعالم مضطر الى أن يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بوجود علمي تاريخي لإبراهيم وإسماعيل إلا إذا ثبت وجودهمـــا بالدليل العلمي ، كذلك أشار في إحدى مقالاته في مجلة السياسة الأسبوعية إلى إلى أنه من الممكن أن يعيش الإنسان بشخصيتين متمايزتين : إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وأخرى مؤمنة ، وأن تهدم الشخصية العاقلة العالمة ما بنته الشخصية المؤمنة .

أريد أن أخلص من ذلك إلى نتيجتين : الأولى : إن الدكتور طه حسين قد تبنى في ذلك تماماً موقف الفرد الذي طبع بطابع الحضارة الأوربية ، إذ تستند هذه الحضارة إلى دعامتين :

---

(١) د . طه حسين . في الأدب الجاهلي من ص ٥٥ – ص ٦٧ .

الأولى : الدين المسيحي وهو يسمح بهذه الثنائية التي تحدث عنها الدكتور طه حسين حيث أدوا ما لقيصر وما لله .

الثانية : الفكر الحديث من علم وفلسفة وقد حدد هذا الفكر منذ أوائل القرن ١٩ الفيلسوف كانط : في مجال العقل النظري لا يمكن بأية حال البرهنة على أي موضوع من موضوعات الميتافيزيقا بما في ذلك وجود الله ، ولكن في مجال العقل العملي لا بد من التسليم بمسلمات ميتافيزيقية وهي وجود الله وحرية الإنسان وخلود النفس من أجل إقامة الأخلاق .

انعكس الموقفان الديني والفلسفي على تفكير الأوربي فطبعه بطابع الثنائية فأصبح لا يجد حرجاً أن يعيش بشخصيتين متمايزتين : شخصية حضارية علمية وشخصية دينية غيبية وأن تهدم الأولى ما تراه الثانية .

النتيجة الثانية : يمكن أن نسمي هذا الموقف انفتاحاً على حضارة الغرب أو انتحالاً لقيمها ولكن لا يمكن أن يعد هذا الموقف بأي حال تجديداً في نطاق الإسلام ، لأن الإسلام لا يقبل هذه الثنائية كما أن شرط التجديد أن تكون نقطة البدء والانطلاق فيه من صميم قيمه ومعتقداته وطابعه لا أن تكون انتحالاً لموقف غريب تماماً عليه .

التصور الثالث لما لا يندرج تحت مفهوم التجديد يأتينا من الهند ، أنه من المعلوم لدينا جميعاً شعور المسلمين بتفوق الفكر الأوربي خصوصاً في الجانب العلمي ، ومن ثم فإن مفهوم التجديد أصبح مقترناً بالتوفيق بين الإسلام والعلم وبيان أن الإسلام لا يتعارض مع العلم ، ولكن السير أحمد خان [1] فهم من

---

(١) السير أحمد خان : عاصر إخفاق ثورة المسلمين ضد الاحتلال البريطاني للهند ١٨٥٨ ، فشعر باليأس من تحرير الهند من السلطة الإنجليزية ورأى أن أفضل وسيلة هي مهادنة الإنجليز حتى لا يسحق المسلمون بين الإنجليز والهندوس ، وقد أنشأ مدارس عصرية حتى لا يلتحق المسلمون بمدارس التبشير التي تطعن في الإسلام ، ألف كتاباً فيه تعليقات على الإنجيل لبيان أن الإسلام والمسيحية متفقتان في كثير من الأصول ولكنه لم يلق قبولا من الطرفين ، أنشأ مجلة تهذيب الأخلاق وفيها عرض لآرائه التي هاجمها الأفغاني ، توفي عام ١٨٩٨ م .

ذلك أن يتحلى الإسلام بخصائص العلم أو بالأحرى أن يصبح الإسلام ديناً وضعياً طبيعياً لا أثر فيه للغيبيات من وحي أو معجزات، يقول في مجلته « تهذيب الأخلاق»: هناك أديان أسهمت في تقدم البشرية وأديان وقفت عقبة في سبيل التحضر فأين يقف الإسلام ؟ إنه لكي يكون ديناً صحيحاً فإنه يجب أن يكون على اتساق مع الطبيعة أي مع ذلك الكون الذي يخضع لقوانين ميكانيكية وفيزيقية تتميز بالحتمية التي لا تتخلف أبداً ، والإسلام هو الطبيعة كما أن الطبيعة هي الإسلام أي أن الإسلام لا يقبل غيبيات تنطوي على خرق قوانين الطبيعة ، المعبر عنها بسنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، وحين سأل موسى ربه « رب أرني أنظر إليك » (الأعراف : ١٤٣) فقد سأله خرق قوانين الطبيعة فكان جواب الرب « ولكن انظر إلى الجبل » أي انظر إلى الطبيعة ؛ لا تتدخل القدرة الإلهية إذن في صورة وحي سماوي أو معجزة أو استجابة لدعوة نبي أو ولي لأن ذلك كله يدل على خرق نواميس الطبيعة ، أما الوحي فيفسره السير أحمد خان في ضوء علم النفس فمصدر الوحي ليس خارجياً إلهياً علوياً ولكنه من نبع داخلي يتخيله النبي خارجياً بفعل « الإسقاط » والدليل على ذلك أن الله أشار إلى وحي إلى النحل كما أشار إلى وحي إلى الأنبياء « وأوحى ربك إلى النحل »[1] وليس الوحي إلى النحل إلا ما يعبر عنه في علم النفس بالغريزة الداخلية، كذلك وحي الأنبياء من مصدر داخلي ، ولا فرق بين الأنبياء والنحل في الوحي إلا في الدرجة ؛ ولا مجال للمعجزات لأن الله خلق العالم على نحو تام من الدقة والنظام دون أدنى اختلال تماماً كما يصنع صانع الساعات ساعة شديدة الدقة ، وكما أن هذا الصانع لا يتدخل في الساعة منذ أن بدأت تعمل كذلك لا تدخل من جانب الله باسم العناية الإلهية في نواميس الكون منذ خلقه ، ولا مجال للإيمان أن يتدخل الله بخرق قوانين الطبيعة من أجل دعاء نبي أو ولي، ولا قيمة للدعاء إلا من ناحيـــة سيكولوجية أي أنه يخفف كربة المكروب وينفس عن آلام الإنسان؛ وليست

---

(٣) سورة النحل آية ٦٨ .

هناك ملائكة في عالمنا وما ذكر الملائكة في القرآن إلا تعبير عن الإمكانيات اللامحدودة لله في الخلق وتسيير العالم وفقاً لقوانين يعمل الإنسان على اكتشافها بالعلم، كذلك ليس الشيطان إلا رمزاً لقوى الشر في العالم والإنسان ملاك وشيطان معاً لأن فيه دوافع الخير والشر مجتمعة[1]، ذلك هو تصور السير أحمد خان لإسلام يمكن أن ينسجم مع العلم ويساير مقتضيات العصر، ولدينا على هذا الاتجاه تعليقات وانتقادات.

١ ـ حاول السير أحمد خان أن يجعل من الإسلام ديناً طبيعياً « Deism » متابعاً في ذلك نزعة سادت في أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد حاول جون فولاند « J. Foland » (+ ١٦٩٦) أن يجعل من المسيحية ديناً بدون أسرار فألغى معظم معتقداتها « Christianity not mysterious » وكذلك « Anthony Collins » في كتابه : مقال في حرية الفكر بفضل ظهور وتطور فرقة المفكرين الأحرار، وكذلك « Mathew Tindol » (+ ١٧٣٠) في كتابه « المسيحية كدين الطبيعة بزعم تنقية الدين من الخرافات والغيبيات »، وذلك من أجل أن يكتسب الدين خصائص العلم فيصبح ديناً وضعياً[2]، ولكن لم تجد هذه النزعة من الدين الطبيعي قبولاً لا من المؤمنين ولا من الملحدين، ويبدو أن ذلك أيضاً كان مصير دعوة السير أحمد خان، بل أن كثيراً من عباراته نراها بحذافيرها في كتاب تولاند كتشبيه الله بصانع الساعة الدقيقة الذي لا يتدخل في سيرها بعد صنعها، الفارق الوحيد هو أنه استبدل الإسلام بالمسيحية.

٢ ـ أساء السير أحمد خان تأويل الآية « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (الروم:

---

(1) An article by B. A. Dar (in) : History of Muslim Philosophy Vol. II (edited by Sharif) pp. 1598-1615.

(2) Encyclopaedia of Religion and Ethics Vol. 4 Art. : Deism pp. 533-543 by G. Joyce.

٣٠) ففهم أن الدين الحنيف أو الدين القيم وهو دين الفطرة يمكن أن يعني دين الطبيعة أي دين بلا أسرار ولا غيبيات ، مع أن المقصود بالفطرة في الآية دين البساطة الذي لا تعقيدات ولا التواءات فيه الملائم لفطرة الإنسان وطبيعته البسيطة وفقاً لقول الرسول : كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فالفطرة هي طبيعة الإنسان البسيطة التي تقبل التصور البسيط للتوحيد لا طبيعة الكون الخاضعة لمنطق العلم .

٣ ـ أود أن أنوه أن هذا المذهب هو ما وجده جمال الدين الأفغاني منتشراً حين سافر إلى الهند تحت اسم النيتشرية « Naturism » فوجه انتقاده له ولمبتدعه السير أحمد خان [١] .

هذه تصورات لا يمكن أن تعد تجديداً ولا تندرج تحت لفظه ، لأن فيها تبديلاً على نحو متفاوت لأصول الدين وقواعد الإسلام التي حسمها القرآن حسماً لا يقبل التعديل أو التبديل فالتجديد يجب أن يظل ملتزماً بما أعلنه الله : « اليوم أكملت لكم دينكم ... » (المائدة : ٣) ؛ فما هي التصورات الإيجابية للتجديد التي يمكن أن تندرج تحته ؟

ـ ٢ ـ

تنبثق جميع دعوات التجديد في الفكر الإسلامي من مسلمة أساسية : وهي الإيمان بقدرة الإسلام كدين عالمي صالح لجميع الأزمان والأوطان على التكيف مع مقتضيات العصر وظروف الحضارة، ومن ثم فقد واجهت حركات التجديد في العصر الحديث تحدياً يتمثل في شعور المسلمين بالتفوق الساحق للحضارة الأوربية فكرياً وثقافياً وعلمياً وسياسياً وعسكرياً ، هذا إلى جانب شعورهم بتخلفهم عما كان عليه أجدادهم في العصور الزاهرة لحضارة الإسلام .

---

(١) وذلك في كتابه المعروف : الرد على الدهريين .

ولما كان العلم هو أهم جانب لتفوق الفكر الأوربي فإن رد الفعل الإسلامي قد اتخذ عدة تيارات أستطيع أن أجملها فيما يأتي :

التيار الأول : يهتم بالإفصاح عن أن الإسلام لا يتعارض مع العقل أو العلم بل أنه يمجد العقل ويحث على العلم، فالدين في رأي الشيخ محمد عبده يجب أن يعتبر من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خبطه وخلطه ، فهناك علاقة متبادلة بين الدين والعقل ، الدين يكمل العقل ويقوّمه والعقل حكم في شئون الدين ، فالإنسان قادر على الوصول إلى معرفة الله بالعقل فضلاً عن أن القرآن قد وجه المسلم إلى النظر في الكون وما حواه من نظام وترتيب ليصل إلى معرفة الله، وأن الإسلام حين يدعو المسلم ويطالبه إلى النظر في الكون لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، وينتقد الشيخ محمد عبده موقف المقلدين الداعين إلى التمسك بالنص بغير عقل ولا هداية وأن شأنهم في ذلك شأن الكافرين الذين وصفهم الله بأنهاً ينعقون بما لا يسمعون وأنهم « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » (البقرة : ١٧١) ، كذلك نعى الإسلام موقف الذين يقولون «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » (المائدة ١٠٤) . فالإسلام قد صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مُسْمياً لعقول على عقول وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، هذا ما يتصل بصلة الإسلام بالعقل ، أما عن صلته بالعلم فيقرر الشيخ محمد عبده أن رسالة النبي قد اشتملت على دعوة الإسلام إلى العلم وإذا كنا معشر المسلمين لا نجد سبباً لرقيهم (أي الأوربيين) إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم فأول واجب علينا هو السعي بكل جهد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا الإسلامية، ويشير الشيخ محمد عبده إلى أن للمسلمين كتابين : كتاب الطبيعة المفتوح وهو الكون وكتابهم المنزل وهو القرآن وأن الأخير يرشدنا إلى وجوب العلم بالأول بما أوتينا من عقل[1] ، وفي تفسير قوله تعالى : « وأعدوا لهم

(١) الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٥٢ – ١٦٠ طبعة المنار .

ما استطعتم من قوة » (الأنفال ٦٠) . تتضمن هذه الآية محاربة الكافرين بنفس الأسلحة التي يحارب بها هؤلاء المسلمين، وإذا كانت الأسلحة الحديثة تستند إلى العلوم الرياضية والطبيعية فإنه يجب على المسلمين تعلمها طالما أن الاستعداد العسكري لا يتم إلا بها[1] ؛ ومع سمو هذه الأفكار فإنها لا تتعدى القول بأن الإسلام دين العقل وأنه يحث على العلم ، صاغها بصيغ مختلفة دون تعمق في بيان هذه الصلة بين الإسلام من جهة والعقل والعلم من جهة أخرى، ومن ناحية أخرى أن سبب تأخر المسلمين كما يرى الكثيرون هو إيمانهم بعقيدة الجبر والتواكل الذي أدى بهم إلى الكسل والتواني في العمل بدعوى الارتكان إلى المقدر والمكتوب ، ولما كان تجديد الشيخ محمد عبده لا يتعدى نطاق المذهب الأشعري ولما كانت عقيدة الكسب لدى الأشاعرة تقترب من الجبر ، فإن دعوته التجديدية لم تستطع أن تفك إسار المسلمين من قيد الجبر ، ولا أعتقد أن دعوة تجديدية يمكن أن يكون لها أثرها الفعال إذا كان صاحبها ملتزماً بحدود فرقة إسلامية معينة خصوصاً إذا كانت هذه الفرقة هي الأشاعرة ، إنه لا بد لنجاح أية دعوة تجديدية أن تكسر نطاق المذهبية إلى عالمية الدين حيث هناك مذاهب أخرى لا سيما المعتزلة أقدر على مواجهة تحديات العصر من جهة وتخليص المسلمين من فكرة الجبر من جهة أخـــرى .

ننتقل الآن إلى التيار الثاني الذي يستشهد بحث الإسلام على العلم بالرجوع إلى تاريخ الإسلام حيث أعقب نشأة الإسلام ازدهار حضارته وتقدم العلوم فيه ، واجه مفكرو الإسلام المحدثون هذا الموقف حين اتهم الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان الإسلام بأنه لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر بل هو عائق لهما بما يتضمنه من اعتقاد بالغيبيات وإيمان بالقضاء والقدر [2] ، وتستند ردودهم عادة إلى قضيتين :

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٢) وذلك في محاضرة ألقاها في جامعة السوربون عام ١٨٨٣ وقد رد عليه جمال الدين الأفغاني.

الأولى : نقد المسيحية: حيث أن انتشار المسيحية في العالم الأوربي قد أعقبه تدهور الحضارة الرومانية وسقوطها ، هذا من الناحية السياسية ؛ ثم دخول أوربا في العصور الوسطى المسماة بعصر الظلمات من الناحية الحضارية والفكرية .

الثانية : أن الإسلام على عكس ذلك فقد أعقب نشأته وانتشاره ارتقاء أحوال المسلمين إلى حد أن تصدروا حضارات العالم القائمة آنذاك سياسياً وفكرياً .

نحن الآن بصدد الجانب الفكري ، يقول كاربنسكي : أن الخدمات التي أداها العرب للعلوم لم تقدر حق قدرها من المؤرخين وأن البحوث الحديثة تدل على عظم ما ندين به للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوربا غارقة في ظلمات القرون الوسطى .

ويقول سارتون : لو لم تنتقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية عن طريق العرب لتوقف سير المدنية بضعة قرون ولكنهم لم يكونوا مجرد نقلة وإنما كونوا نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة فقدموا للعلم خدمات جليلة ، وفي نص آخر يقول : إن تاريخ العلم في العصر الوسيط هو تاريخ العلم العربي وأن اللغة العربية كانت هي لغة العلم الدولية التي كان يجب أن يدرسها كل من أراد البحث والتعمق في العلم [1] .

ومن المعلوم أن المسلمين قد أسهموا في تطور عدد من العلوم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر علم الحساب فلقد استبدل الأوربيون الأرقام الآن بدلاً من الأرقام اللاتينية تحت تأثير المسلمين في الأندلس، وكانت تعرف في أوربا باسم الأرقام العربية وقد أخذها المسلمون من الهنود وسميت في العالم الإسلامي بالأرقام الغبارية[2] وهي تعتمد على فكرة الزوايا .

---

(١) سارتون : تاريخ العلم وانظر أيضاً العلوم عند العرب لقدري طوقان ص ٦–٨ .

(٢) كان الهنود إذا كتبوا هذه الأرقام ذروا التراب أو الغبار على لوحة ثم يكتبونها فسميت بالأرقام الغبارية .

ولبيان أهمية هذه الأرقام لك أن تتصور مدى المشقة التي كان يتحملها الطفل الأوربي في تعلم عمليات الحساب باستخدام الأرقام اللاتينية على سبيل المثال :

كذلك عرف الأوربيون عن المسلمين الجذر التربيعي والأعداد الصماء (ليس لها جذر) وتسميتها ترجمة عن العربية « Surd number » أصم (أي لا يسمع) وأما علم الجبر فهو اكتشاف إسلامي خالص يرجع الفضل فيه إلى الخوارزمي ، يقول سارتون : إن تقدم الرياضيات الحديثة قائم على تراث ضخم تجلت فيه أصالة اليونانيين في الهندسة والهنود في الحساب والعرب في الجبر ، وكان علم الفلك من أكثر العلوم التي تطورت في ظل هذه الحضارة التي صححوا أخطاء اليونان والفرس والهنود والصابئة وطهّروا علم الفلك من التنجيم وتوصلوا إلى قياس دقيق لمحيط الأرض ٧١٢٤٨ كم وحساب السنة الشمسية ولا يكاد يختلف التقدير الحديث لها إلا بمقدار دقيقة واحدة [١] .

أما في العلوم الطبيعية فإن علم الضوء يعد اكتشافاً إسلامياً يرجع الفضل فيه إلى الحسن بن الهيثم ، كذلك يعد علم الكيمياء بفضل جابر بن حيان ، وتقدم علم النبات لصلته الوثيقة بالأدوية ، ويعد كتاب ابن البيطار من أهم كتب علم النبات إذ سجل ملاحظاته على ١٤٠٠ نوعاً من العقاقير نباتية وحيوانية ومعدنية منها ٣٠٠ نوعاً لم يسبقه إليها أحد وقد تبين فوائدها الطبية والغذائية ، وتحددت مهنة الصيدلة في ظل الحضارة الإسلامية فلم يسمح بمزاولتها إلاّ بترخيص وقيد في جدول خاص وبعد اجتياز امتحان ، والأطباء المسلمون هم

---

(١) قدري حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ٥٢–٧١ الناشر : مكتبة مصر .

أول من استخدم التخدير في العمليات الجراحية وفي تهدئة المرضى في أحوال الأمراض العصبية وقد ظلت كتب ابن سينا مرجعاً في الطب في الجامعات الأوربية حتى القرن السابع عشر [1].

لا شك أن هذه المعلومات وغيرها مما تعرفونه يدحض الادعاء أن الإسلام كان عائقاً في سبيل العلم أو البحث الحر ، ولا شك أيضاً أن أقوال بعض المستشرقين وعلماء الغرب المنصفين تثير في المسلم شعوراً بالاعتزاز بدينه ، ولكن لا بد من التنبه إلى المخاطر التي قد تنجم عن اعتبار التجديد مقصوراً على سرد أمجاد الماضي ، إن ذلك يجعلنا نصاب بما يسميه نيتشه « داء التاريخ » فقد أشار كل من ديكارت ونيتشه إلى ما يصاب به الباحث من آفة نتيجة عكوفه على دراسة الماضي ، فالتاريخ على حد تعبير ديكارت يشد الباحث إلى الماضي إلى حد أن يصبح غريباً عن الحاضر كما ينتهي الأمر بكثير الأسفار إلى حد أن يصبح غريباً عن وطنه، وأما نيتشه فقد عنى من ذلك أن الحالة التاريخية بطبيعتها متعارضة مع الابتكار ، ذلك أن اللحظة الإبداعية لفكر الإنسان إنما هي طفرة أو نقلة من الحاضر إلى المستقبل بينما اللحظة التاريخية إنما هي نقلة من الحاضر إلى الماضي [2] ، أريد أن أقول أن سرد أمجادنا التاريخية في الفكر والعلم ليس إلا اجتراراً بينما يتطلب التجديد ابتكاراً .

التيار الثالث هو التيار العلمي ، إنه للتدليل على أن الإسلام دين العلم فقد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٧–٩٤ .

(٢) د . أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ ص ١٢٨ – ١٢٩ .

نص عبارة الشيخ محمد عبده : ذهب المفسرون الى ان المقصود من الآية أن الله يبعث آكلي الربا كالمصروعين وان العرب تقول لمن يصرع إنه من مس الشيطان له ، وهو ما كان معروفاً عند العرب جارياً في كلامهم مجرى المثل .. وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التي تعالج بالعقاقير وغيرها من الطرق الحديثة .. وقد قلنا في المنار غير مرة أنه يصح أن يقال إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى الميكروبات يصح أن تكون نوعاً من الجن وقد ثبت أنها عال أكثر الأمراض .. فنحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارض العلم « مجلة المنار مجلد ٩ ص ٣٣٤ »

ذهب بعض الباحثين إلى تفسير القرآن في ضوء العلم وذلك ليثبتوا أن القرآن قد سبق كثيراً من نظريات العلم التي جاء بها المفكرون الأوربيون، نشر السيد كرامت علي – وهو إيراني – كتاباً بالإنجليزية عام ١٨٧٨ حاول أن يوضح فيه الاتفاق التام بين القرآن الكريم والنظريات الحديثة في الطبيعة والفلك ، كذلك ذهب الدكتور محمد توفيق وصفي وهو طبيب مصري في بحث له عن القرآن وعلم الفلك نشره في مجلة المنار ذهب إلى أن الآراء الحديثة في الفلك توافق ما ورد في القرآن عن السماء والأرض والكواكب ، ومن الكتاب المعاصرين أذكر عبد الرزاق نوفل وأخيراً الدكتور مصطفى محمود الذي أثار ضجة بما نشره من مجموعة مقالات بعنوان « القرآن محاولة فهم عصري » .

ومع أن المبدأ الأساسي لدى الشيخ محمد عبده ومدرسته أن القرآن لم ينزله الله لشرح مسائل العلوم وأن ما تذكر فيه من آيات كونية أو كائنات حية إنما للتنبيه على حكمة الله فإنه من الغريب أن الشيخ محمد عبده قد أخضع القرآن في بعض تفسيراته لنظريات العلم وأذكر على سبيل المثال هذه الآيات :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» (البقرة ٢٧٥) لما كان ظاهر الآية يشير إلى أن الجنون مس من الشيطان أو الجن ، ولما كان ذلك لا يتمشى مع التفكير العلمي الحديث فقد ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن الجن هي الأجسام الخفية أي الجراثيم المسببة للأمراض ، وبذلك يتمشى القرآن مع أحدث مراحل الطب في إشارته إلى الجراثيم ؛ بطبيعة الحال لم يكن هناك مبرر لهذا التفسير المتعسف ، لأن ابن عباس وهو أوثق مصدر للمفسرين قد ذهب إلى أن ذلك على وجه التشبيه لأن الشيطان لا يصرع الإنسان على الحقيقة ولكن العرب تقول لمن أصيب بالتخبط أو الجنون أنه مسه طائف من الشيطان أو الجن ، والقرآن قد نزل بلغة العرب ووفقاً لتعبيراتهم ، وإذا كان القرآن قد أشار إلى الجن في أكثر من موضع فإن كثيراً من فرق المسلمين كالمعتزلة لا تؤمن إطلاقاً بأثر الجن على الإنسان وأن ليس للشيطان من أثر على الإنسان إلا ما يعرف بالوسوسة .

الآية الثانية في أول سورة المائدة: « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » اتفق المفسرون بصدد هذه الآية على أمرين الأول : أن الآيات التي يكون فيها الخطاب « يا أيها الناس » هي آيات مكية بينما الآيات التي يكون فيها الخطاب « يا أيها الذين آمنوا »آيات مدنية، الثاني : أن النفس الواحدة المقصودة في هذه الآية هي نفس آدم ، وخلق منها زوجها » أي حواء وآدم أبو البشر ، أما الشيخ محمد عبده فلكي تتفق الآية مع نظرية دارون في أن الإنسان يرجع في أصله إلى عدة أصول فقد ذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة ليس آدم وإنما لكل مجموعة من البشر أب أو أصل ، ويستدل على ذلك أن القرينة « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » بالتنكير ولم يقل الله وبث منهما جميع الرجال والنساء ، وأن النسب المشهور من رد البشر إلى آدم مأخوذ من العبرانيين على نحو ما هو وارد في التوراة ، وأننا نحن المسلمين لسنا ملزمين بتصديق تاريخ اليهود، وإن الله قد أبهم أمر النفس فجاء بها نكرة فندعها على إبهامها ، فإذا ثبت أن ما جاء به العلم من أن لكل صنف من أصناف البشر أباً كان ذلك غير وارد على كتابنا[1]، كذلك ذهب في تفسير قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (البقرة ٢٥٢) إلى أن ذلك ما يعبر عنه علماء هذا العصر بتنازع البقاء، وأن قوله تعالى « لفسدت الأرض » هو ما يقصده العلماء من البقاء للأصلح ، وأن ما فطر عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض أي هو سبب البقاء للأصلح .

على هذا النحو فهم الشيخ محمد عبده أن روح الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح تفسح صدرها لكل بحث علمي ، وأود أن أنوه هنا بصدد هذه التفسيرات إلى حملة أستاذه جمال الدين الأفغاني على نظرية دارون في كتابه

---

(١) المنار ج ١٢ ص ٤٨٣ .

« الرد على الدهريين » ، فهل نظرية دارون تعارض الإسلام أو أنها قد وردت في القـــرآن ! !

وما دمنا بصدد القرآن ونظرية دارون فإنه يجدر أن نشير إلى تفسير آخر ، يقول مصطفى محمود في تفسيره العصري للقرآن : ان القرآن حينما يعرض لموضوع إنما يقدمه بالإشارة والرمز والمجاز واللمحة الخافقة والعبارة التي تومض في العقل كبرق خاطف ثم يعرض للآيات «ولقد خلقناكم ثم صورناكم » (الأعراف) . « إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » . « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (المعارج : ٤) . « وقد خلقكم أطواراً » ، فخلق آدم قد جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والاستواء استغرق ملايين السنين بزماننا وإن عد أياماً من أيام الله ، وإن قول الله ... « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . » (الأنعام : ٣٨) فيه ربط بين جميع المخلوقات في وشيجة عائلية واحدة وقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (المؤمنون : ١٢) . يدل على أن الله قد خلق آدم في أحسن تقويم ثم اشترط عليه كي يعيش في سعادة أبدية ألا يقرب الشجرة التي هي شجرة الجنس ، فلما عصى آدم ربه وأكل من الشجرة فقد استبدل بخلود شخصه خلود النوع اللازم عن الشهوة الجنسية ، فأهبطه الله من تلك الجنة إلى التيه المادي ــ الحمأ المسنون ــ أي الطين المتخمر في المستنقعات مجرد جرثومة ، وتدرج آدم في الخروج من التيه المادي متدرجاً عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول نظرية التطور عبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى وألاميها والإسفنج والرخويات والقشريات إلى الفقريات والأسماك ثم خلع عن نفسه القشر إلى الزواحف والطيور إلى الثدييات إلى أعلى تربة آدمية حين وقف آدم منتصباً على قدميه ممثلاً الإنسان الأول ، آدم الجديد ، ليكد ويكدح ويعرق من أجل أن يأكل ويعيش « لقد خلقنا الإنسان في كبد » (البلد : ٤) أي في تعب ، ولقد استفسرت الملائكة واستغربت كيف يجعل الله الإنسان خليفة على الأرض ، « أتجعل فيها من يفسد فيهـــا

ويسفك الدماء » (البقرة : ٣٠) ذلك أن الملائكة كانت قد شاهدت آدم في رحلته الدموية في أطواره الأرضية حتى وصل إلى مرحلته الحالية ، هناك إذن مرحلتان من خلق آدم : آدم المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأدخله جنته ، وآدم أرضي الذي انبثق من ظلام المادة في رحم الأرض في أسفل سافلين (١) .

ربما كان الدكتور مصطفى محمود أقدر من الشيخ محمد عبده في التعبير عن الملائكة بين القرآن ونظرية دارون ، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أنه أكثر منه تمكناً في العلوم الطبيعية والبيولوجية ، ولكن أظن أنه لا يخفى مـــا تنطوي عليه خطورة مثل هذه التفسيرات التي تخضع القرآن لنظرية علمية ، وماذا يكون الحال لو ظهرت نظرية تنقض تماماً التفسير الداروني لنشأة الكائنات الحية فلا تجعل له إلا قيمة تاريخية؟ هل سيلهث التفسير العصري وراء النظرية الجديدة ليطوع القرآن لها ويخضعها لمضمونها ؟ إن القرآن ليس كتاباً في العلم ، وإذا كنا لا نقبل أن يتحكم الدين في مجالات العلم فإنه يجب أن نرفض أيضاً تدخل العلم فيما هو مجال الدين .

على أنه ليست كل التفسيرات العلمية متعسفة ، فهناك آيات تبدو متسقة تماماً مع الاتجاهات الحديثة في علم الفلك كقوله تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » بما يشير إلى كروية الأرض علماً بأن التفسير المعروف للآية أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل بالزيادة والنقصان على مدار السنة ، والأرض بعد ذلك دحاها .. للدلالة على أن الأرض ليست تامة الاستدارة وإنما هي كالدحية أو البيضة ثم قوله تعالى : « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » (الرعد : ٤١) للدلالة على أن دوران الأرض حول نفسها قد جعل قطرها المار بالقطبين ينقص عن قطرها المار بخط الاستواء ٢١ كم ، وقوله تعالى عن أهل الكهف « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين

---

(١) مصطفى محمود : القرآن – محاولة لفهم عصري ص ٦١ – ٧٥ نشر دار الشروق بيروت .

وازدادوا تسعا » التفسير المتفق عليه أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين أما التسعة فمن الجائز أن تكون تسع سنين أو تسعة أشهر أو تسعة أيام ، أبهمه الله بدليل أن الآية التي تليها « قل الله أعلم بما لبثوا » أما التفسير الحديث فهو إن شئت أن تحسب السنين بالسنة الشمسية أو الميلادية فهي ثلاثمائة سنين وإن شئت أن تحسبها بالسنة القمرية أو الهجرية فهي ثلاثمائة وتسعة سنين لأن كل ٣/١ ٣٣ سنة ميلادية تساوي ٣/١ ٣٤ سنة هجرية أي أن كل ١٠٠ سنة شمسية تساوي ١٠٣ سنة قمرية ومن ثم فإن ٣٠٠ سنة ميلادية تساوي بالضبط ٣٠٩ سنة هجرية.

ثم إليكم هذا التفسير لآية كونية أخرى، يقول تعالى : « ألم ترَ أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» (النور : ٤٣) ، يقول الدكتور محمد جمال العندي أستاذ الطبيعة الفلكية تتجمع السحب فتؤلف ما يسمى بالسحابة الركامية « يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً » ومنها يخرج المطر « فترى الودق يخرج من خلاله »، يصل ارتفاع السحابة الركامية إلى ما يقرب من ٢٠ كم حيث تتفاوت درجة الحرارة بين أسفلها وأعلاها بين + ٤٠ درجة، — ٥٠ درجة ، وتبدو السحابة الركامية كالجبل ناصعة البياض ، من هذه السحابة الركامية يتكون البرد ، وكان الرأي الشائع أن البرق والرعد تفريغ كهربي بين سحابتين إحداهما محملة بشحنة موجبة وأخرى سالبة ولكن التفسير الدقيق أنه حين يصل البرد أو كرات الثلج إلى حجم معين فإنها تعطي تياراً كهربياً وذلك نتيجة التفاوت الكبير بين درجتي الحرارة (+ ٤٠° — ٥٠°) ومن ثم يسبب البرق والرعد والصواعق « فيصيب به من يشاء » كذلك تبين بعد اكتشاف الطيران أن هذا البرد في مرحلة معينة من حجمه يصيب الطيار الذي يحاول اختراق السحب بالعمى المؤقت «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار»[1].

---

(١) الدكتور محمد جمال الدين القندي : من روائع الإعجاز في القرآن الكريم ص ٨١ نشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

جامعة قاريونس
كلية الآداب
مكتبة قسم الآثار
الرقم المسلسل

انه إذا كنا لا نريد أن تحمل الآيات القرآنية نظريات علمية فإنه لا حرج في أن تكون بعض الآيات الكونية منطلقاً للعلماء كل في تخصصه، ثم إن هذه التفسيرات تقدم دليلاً على صلاحية القرآن لكل عصر ؛ اسمحوا لي أن أذكر اعتراضاً قاله صديق : كيف تقول بصلاحية القرآن لكل عصر ونحن في عصر الطائرات ومركبات الفضاء والقرآن يقول : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة [1] » . والرد بأنه إذا كانت هذه الآية موجهة إلى أجدادنا ممن كان يركب الخيل والبغال والحمير فإن التفسيرات العلمية للقرآن طالما لا تنطوي على تعسف أو شطط وطالما أنه ليست هناك أحكام مسبقة لتطويع القرآن لبعض النظريات العلمية وإنما يأتي منطوق الآية ومفهومها الواضع متمشياً مع رأي علمي فإن ذلك يمكن من تقديم تفسيرات متجددة متلائمة مع نمط تفكير كل عصر ، ان أحداً لا يستطيع أن يحجر على عقولنا أو يضيق على أفهامنا الالتزام بفهم القرآن كما فسره المفسرون منذ أكثر من ألف عام، أن تجدد التفسير في غير تعسف أو شطط يجعل القرآن معيناً لا ينضب لمفاهيم متجددة، ولقد ذهب إلى هذا المعنى أحد الصوفية ، يقول سهل التستري: لو أن عبداً أعطى لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية علم الله منه لأن علمه سبحانه لا يتناهى ، وأن القرآن إنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم معاني كلامه [2] ؛ والله يقول : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (الكهف : ١٠٩) ولا تدل الآية على ما لا يتناهى من كلمات الله الدالة على علمه فحسب وإنما على ما لا يتناهى من المعاني المتجددة لكلماته وذلك سر خلود القرآن .

* * *

(١) سورة النحل آية ٨ : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون، في التفسير ويخلق ما لا تعلمون من أنواع الحيوان والنبات والجماد لمنافعكم (مجمع البيان ص ٥٩ المجلد الرابع) ، فكل ما اخترعه الإنسان إنما هو من الجماد الذي سخره الله للإنسان .

(٢) تفسير سهل التستري ص ١٩١ .

في كل هذه التيارات والاتجاهات التي عرضت لم نجد بينها تياراً أو اتجاهاً يتعمق في فهم العقلية الإسلامية ليكشف النقاب عن خصائصها التي لا تتمشى مع العلم فحسب بل تحث عليه وتوجبه ، إنه إذا كان قيام الإسلام قد أعقبه إزدهار الفكر الإسلامي فما هي حقيقة العلية في هذا التلازم في الوقوع ؟ ماذا في الإسلام كعقيدة حتى يؤدي إلى أن يكتشف الخوارزمي علم الجبر ؟ ماذا في طبيعة الإسلام حتى يكون الحسن بن الهيثم مكتشف علم الضوء أو أن يكون فضل جابر بن حيان علم الكيمياء كفضل أرسطو على المنطق ؟ إننا نذكر هذه العلوم ونذكر فضل هؤلاء العلماء دون أن نتعمق لنعرف كيف كانت هذه الثقافة المزدهرة نتاج دين كالإسلام ، إننا نكتفي بذكرهما متلازمين ، والمناطقة يقولون ليس كل تلازم في الوقوع دليل العلية ، ومن ناحية أخرى لو استطعنا الكشف عن العملة في كون هذه الحضارة المزدهرة ثمرة دين الإسلام فإننا بذلك نكشف النقاب عن تلك الروح ، وبذلك يمكن أن نحييها في أنفسنا كي تثير فينا ما أثارته في أجدادنا من قبل .

لقد عالج هذا الموضوع فيلسوف الهند وشاعرها والزعيم الروحي لدولة باكستان الدكتور محمد إقبال ، فلقد اجتمعت له من العقلية الفلسفية العميقة والحس الديني المرهف ما أمكنه أن يعالج هذا الموضوع في كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام » .

يشير الدكتور محمد إقبال إلى مجال كل من الدين والعلم ، فالعلم نظرات جزئية للحقيقة ، تبحث العلوم الطبيعية في المادة وفي الحياة وفي العقل على نحو منفصل تتجلى فيه جزئية كل علم من العلوم بينما ينشد الدين الحقيقة بوصفها كلاً ومن ثم يجب أن يتخذ مكاناً مركزياً وليس من حق العلم أن يقيم نظريته على اعتبار أنها رأي كامل عن الحقيقة ، يستند العلم إلى العقل ويستند الدين إلى البصيرة ، أحدهما يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً بينما يدركها الآخر في

تكاملها ، خلاصة القول لا مجال أن يطغى العلم على مجال الدين فلكل ميدانه .

ثم يشير الدكتور إقبال إلى أن هناك مشكلات واجهت الحضارة الأوربية المسيحية ثم تبنى المسلمون هذه المشكلات بينما هي تخص وتواجه الفكر المسيحي وحده ، فاتجاهات عصر التنوير والنزعات العقلانية والإنسانية والوضعية والماركسية رد فعل لما أغفلته الحضارة المسيحية في العصر الوسيط ، في المسيحية انفصال بين الحياتين الروحية والمادية ، اعتبرتهما بديلين في قضية شرطية منفصلة (أما كذا وأما كذا) : لا تستطيع أن تخدم سيدين : الله والمال لأنْ يدخل غني في ملكوت الله أصعب من أن يلج الجمل في سم الخياط ، ولذا فحين قال المسيح كلمته : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، أتى ماركس بالبديل الآخر : ولكنه بدون الخبز لا يعيش ، جاءت المسيحية بالله بدلاً من الإنسان فجاءت النزعة الإنسانية لتقول بالإنسان ، جاءت المسيحية بالروح دون المادة فجاءت المذاهب المادية ومنها الماركسية بالمادة دون الروح ، جاءت المسيحية بالدين بدلاً من العلم فجاءت النزعات العقلانية والعلمانية بالعلم دون الدين.. ولكن ليس لذلك كله محل في الإسلام لأنه أتى بالحقيقة في صيغة قضية عطفية لا شرطية منفصلة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (القصص : ٧٧) ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » (الكهف ٤٦) ، « قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الأعراف ٣٢) .

وإذا كان لا محل لهذه المذاهب الغربية في الإسلام فماذا عن خصائص الروح الإسلامية ؟ أول هذه الخصائص أن الإسلام لا يتناول الحقيقة بالتفكير النظري المجرد، فالقرآن يعني دائماً بالشخص المعين، يتجلى ذلك في قصص الأنبياء حيث تدور القصة حول نبي أي فرد وبذلك دفع المسلمين إلى النظر الواقعي المحسوس، ومن الخطأ الظن أن الفكر الإسلامي قد شكلته الحضارة اليونانية التي لم تكن تعني إلا بالمجرد النظري فلا علم عند أرسطو إلا بالكل

بينما في الإسلام «أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (الإسراء : ٣٦) وإذا وصف الإسلام من لا يعقلون فإنه يصفه بأنهم « صم بكم عمي» أي أنه يؤكد جانب الحواس وارتباط العقل بها ، ومن ثم كانت الملاحظة طابع الإسلام، جانب الاتجاه إلى الخارج، إلى السموات والأرض ، إلى تصريف الرياح إلى ظلمات البر والبحر ، إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت بل وجه الأنظار إلى أشياء صغيرة في الكون : « إن الله فالق الحب والنوى » (الأنعام : ٩٥) بل حتى إلى الحشرات « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون .. » هكذا كانت آيات الشمس والقمر والنجوم والرياح توجيهاً للمسلمين إلى البحث في الفلك ، وكانت الآيات التي فيهـا ذكر الأنعام لفت نظر المسلمين إلى البحث في الحيوان لا حيوانات البر فحسب بل البحر الذي « تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » (فاطر : ١٢) ، ثم لاحظ هذا الحث على النظر في العبارات التي تنتهي بها هذه الآيات : لقوم يعقلون، لقوم يذكرون – يتفكرون – يشكرون – يهتدون –، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

يقول محمد إقبال : هكذا أيقظ القرآن روحاً تجريبية في عصر كان يرفض عالم المرئيات بوصفه قليل الغناء في فكر الإنسان ، لقد جعلت روح الثقافة الإسلامية المحسوس نصب عينيها فكان أن ظهر منهج الملاحظة والتجربة ، فلم ينشأ الفكر الإسلامي عن تأثر بالعقلية أو الفلسفة اليونانية بل على العكس كان هناك صراع طويل المدى بين تعاليم الإسلام التي تحث على التجربة وبين فكر اليونان الذي غشي أبصار فلاسفة الإسلام فلم يدركوا معاني القرآن ، ولم يكتف القرآن بمجرد حث أولي الألباب من المسلمين على النظر في ملكوت السموات والأرض : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » (آل عمران: ١٩٠) ، بل أنه ميز العالم على الجاهل « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر : ٩)، ثم اعتبر المسلم

مسئولاً عن النظر في ملكوت السموات والأرض ليتعقله ويتدبره ليستهدي بعد ذلك ويؤمن « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (الإسراء : ٣٦) ، لاحظوا بعد ذلك هذه المفارقة : هذا كان فهم أجدادنا للقرآن فماذا فهمنا نحن عنه ؟ يقول إقبال في إحدى قصائده : لا اتصال لنا به إلا في المقابر وساعة الوفاة ، لقد أصبح الكتاب الذي نزل ليمنحك القوة والحياة يتلى الآن فقط ساعة الوفاة لتخرج روح الميت في راحة وإناة ! ! أحيَوا القرآن فأحياهم وأمتنا القرآن فماتت روحه فينا.

ومن ناحية أخرى كانت الأمم السابقة تشترط على الأنبياء المعجزات حتى تؤمن : عصا موسى التي تلقف ما يأفكون ، معجزة المسيح في إحياء الموتى ، بل حتى حواريو المسيح بعد إيمانهم سألوه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، ولكن عند الإسلام وبالإسلام كان الإعلان الإلهي بإحلال العقل محل الغيب وبإقامة الدليل بدلاً من المعجزة ، لقد بلغت الإنسانية بالإسلام مرحلة النضج فلم تعد في حاجة إلى ألا تهتدي إلا بظهور معجزة أو مبدأ خارق للطبيعة ، كانوا إذا جادلوا الرسول جادلهم بالتي هي أحسن ، إذا سألوه المعجزة أخبرهم أنه بشر ، إذا طلبوا منه أن يحيي الله الموتى لم يكن يحيي لهم الموتى ، جاء رجل إلى الرسول ومعه عظمة لميت بليت منذ مدة ثم فركها بين يده وقال هل يحيي الله هذه بعد موتها يا محمد فنزلت الآية : « قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (يس : ٧٨ ، ٧٩) ، خاطبهم بما يسمى دليل الأولى إذا كنتم تؤمنون بالخلق الأول فأولى أن تؤمنوا بإمكان إعادة الخلق ، أما إن أنكروا الخلق الأول خاطبهم « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » (الطور : ٣٥) ، دليل حاصر واستفهام استنكاري ، يشير إلى أن الخلق من غير خالق ممتنع في بداهة العقول وخلق أنفسهم بأنفسهم أشد امتناعاً فلا يبقى إلا أن يكون لهم خالق ، وإن أعلنوا كثرة الآلهة خاطبهم بدليل الخلف « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[1] ».

(١) في مخالفة أدلة القرآن لقياس أرسطو راجع ابن تيمية الرد على المنطقيين (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان) .

هكذا كان مولد الإسلام يعني مولد العقل الاستدلالي ، كان خطاب القرآن دائماً للعقل، لأولي الألباب – لقوم يعقلون – أفلا يتدبرون .

كان التوجيه السماوي إلى الملاحظة والتجربة وكانت مخاطبة القرآن للعقل هما أهم خصائص الروح الإسلامية التي فجرت في المسلمين تلك العبقريـــة التي جعلتهم يتصدرون الحضارة العالمية .

ويشير محمد إقبال إلى خاصية ثالثة من خصائص الروح الإسلامية ألا وهي الحركة والتجدد لقد تمثلت العقلية اليونانية الكون في سكونه، يتضح ذلك لدى زينون الإيلي الذي أبطل الحركة وحتى حينما تصور هيرقليطس التغير في عبارته: «كل شيء في تغير مستمر» فإنه جعلها في حدود الحركة الصاعدة النازلة ، فثمة لا تجديد ولا تطور ، يتمثل السكون والجمود والثبات في منطق أرسطو القائم على القياس حيث تخضع الحالات الجزئية للقاعدة الكلية خضوعاً صارماً لازماً فلا جديد في نتيجة القياس، ولو نظرنا إلى الحياة بمنظار منطق أرسطو لبدأ آلياً عقيماً ليس فيه ما يبعث على الحركة والحياة[1].

أما الإسلام فقد تصور الكون متحركاً : اختلاف الليل والنهـــار ، والشمس تجري لمستقر لها والقمر قدرناه منازل، حتى الظل ينبهنا الله الى أنه بدوره متحرك ، وإذا أشار إلى التاريخ البشري فهو بدوره متحرك « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (آل عمران : ١٤٠) ،وليست حركة وفقاً للسنة الكبرى أو الحركة الدائرية لدى هيرقليطس والرواقيين ولكنها حركة متطورة متجددة « يزيد في الخلق ما يشاء » (فاطر : ١) ، فالحقيقة لم تقع كلهـــا ولكنها في سبيل أن تقع دائماً ، مرة أخرى النموذج الكامل للعلم عند اليونان هو الهندسة : شكل محدود ، سطح مستو مغلق، والنموذج الكامل للفن في النحت: تجسيد وتحديد ، ومن ثم كان التناهي طابع العقلية اليونانية بينما نموذج العلم في الإسلام في مجالين :

---

(١) محمد إقبال : تجديد الفكر الديني ص ٦–١٢ « الترجمة العربية » .

الأول التصوف حيث سعى الإنسان الدائم إلى الاتصال بالله اللامتناهي « وإن إلى ربك المنتهى » (النجم : ٤٢) ، بل إن ذلك السعي نحو اللامتناهي ليس في التصوف فحسب بل في الصلاة اليومية للمسلم فالصلاه صلة بين عبد متناهٍ نحو رب لامتناهٍ [1] ، والمجال الثاني هو الجبر الذي ابتكره الخوارزمي فانتقل من السطوح المستوية المحدودة إلى ميدان عقلي خصب مكن الرياضيات من الانطلاق طلباً للكميات اللامحدودة ، أما في الفن فإنه الفن الزخرفي حيث البعد عن التجسيم المتجلي في النحت والصور ، والوحدة الزخرفية في الفن الإسلامي ليست مغلقة ولكنها مفتوحة لتشير إلى الانفتاح والانطلاق .

يتجلى هذا التطور والتجدد مرة أخرى في إعلان الإسلام ختم النبوة ، وأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الاجتهاد هو المصدر الثالث للتشريع ، فلم تصبح الهداية موقوفة على انتظار مجيء نبي وإنما هي متجددة قائمة دوماً بفضل العلماء ، وفي الاجتهاد لم يكن النص الديني في التشريع الإسلامي يتخذ كقاعدة عامة كأنها مقدمة في قياس أرسطي فلم تكن القاعدة المعمول بها : أن ما ينطبق على العام ينطبق على الخاص ، وإنما القاعدة العامة أن التشريع الإلهي إنما وجد لحكمة أو مصلحة فإن كان الالتزام بالنص يؤدي إلى ضياع الحكمة أو المصلحة انتفى العمل بالنص ، فإن جاء النص الإلهي مثلاً « وليوفوا نذورهم » (الحج : ٢٩) ، فإنه لم يكن يصاغ في قاعدة عامة : كل من نذر نذراً لا بد أن يفي به ثم في صيغة قياس أرسطي وهذا الرجل قد نذر نذراً » . إذن لا بد أن يفي به ، وإنما كانت تراعى الأحوال الخاصة ، فحينما جاء رجل إلى عكرمة مولى ابن عباس قائلاً إنه نذر نذراً في معصية (نذر إن كسب في لعب الميسر لينفق جزءاً منه في سبيل الله ثم كسب فعلاً) فهل يفي بنذره ؟ جاءه رد عكرمة : إن كان هذا النذر لله فقد كذبت على الله فالله لا يأمر بالمعصية وإن كان هذا النذر للشيطان فقد كفرت بالله ، رد المال إلى أهله ولا تفِ بالنذر ، كذلك لم يبح الرسول تسعير السلع لأن في ذلك إكراهاً للبائع

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ .

يتنافى مع حقه في الملك، ثم أفتى الفقهاء من بعده بجواز التسعير لأنه لا يجوز للبائع ربحاً يضر به الناس، أجاز الرسول صلاة النساء في المساجد يوم الجمعة فأفتى الفقهاء بكراهية ذلك خشية الفتنة، أجاز الرسول شهادة القريب لقريبه في أحكام الميراث حيث كان الناس يؤثرون قول الحق في الشهادة على القرابة، فأفتى الفقهاء بعدم جواز ذلك بعد أن آثر الناس ذوي قرباهم على قول الحق، أباح القرآن الزواج من كتابيات ولكن حين سمع عمر بن الخطاب أن أحد قواد جيشه في الشام قد عقد على يهودية أرسل إليه : لا يصلك كتابي هذا حتى تخلي سبيلها ، فأرسل حذيفة مستفسراً : أحرام هي ؟ فجأءه رد عمر : خشيت أن يقتدي بك المسلمون فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين[1] ، هكذا نجد تطبيقاً مخالفاً تماماً لمنطق أرسطو إذ كان الفقهاء بإزاء واقع حي من المشكلات المتجددة جعلت منهجهم في استنباط الأحكام عملياً واقعياً، لم يكن هناك اندراج الخاص تحت العام بل كان هناك تخصيص الأحكام ولذلك شاع القول : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الأمور، أي كلما استحدث الناس مشكلات استحدث لها الفقهاء أحكاماً، على أن ذلك لا يعني أن أحكام الفقهاء كانت خاضعة للأهواء، وإنما كان يحكم التشريع الإسلامي مراعاة ما يحفظ على المسلمين أرواحهم ودينهم وعقلهم ومالهم ونسلهم ، فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام .

خاتمة :

هذا نموذج للتجديد يحتذى في مقابل نماذج أخرى أخفقت أن تكون زاداً للمسلمين المحدثين في تعطشهم للتجديد، لقد انبثق التجديد زمن ازدهار الحضارة الإسلامية عن فقهاء وعلماء أصول كلهم تعمق في الدين وفهم مراميه عن بصيرة نافذة حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ولا اجتهاد إلا لمن استوفى شرائطه .

وإذا كان الاجتهاد قد انبثق عن مبدأ مراعاة مصالح المسلمين واستجابة

---

(١) مصطفى شلبي : تعليل الأحكام ص ٣٤-٤٨ .

لما تحدث لهم من قضايا، فإن ذلك لا يعني بأي حال أن ينشأ التجديد تحت ضغط ملح من عوامل غريبة عن الإسلام ، وإنما ينبثق التجديد من الإسلام وبالإسلام، أما محاولات التجديد الحديثة فقد انبثقت من نقطة بدء غريبة عن الإسلام : الحضارة الأوربية بقيمها ومفاهيمها ، بل لا يعتذر لمحاولة تجديد أن تقوم على مبدأ التوفيق بين الإسلام والعلم ما دامت نظرية علمية معينة قد أصبحت فكرة مسبقة قبلية متسلطة على عقل المُحدث يطوّع لها نصوص الدين ، ذلك لأن الدين متبوع مخدوم وليس فكراً تابعاً خادماً ، ذلك فارق جوهري بين التجديد والتغريب : نقطة البدء في التجديد إسلامية بحتة تطوع كل ما يعرض للمسلمين من قضايا لأحكام الدين الحنيف ، بينما نقطة البدء في التغريب غربية غريبة إذ هي فكرة متسلطة على العقل من ثقافة الغرب يلتمس لها المحدث من الدين نصاً أو نصوصاً مؤولاً إياها على غير وجهها محرِّفاً للكلم عن مواضعه تحت دعوى أن يتمشى الإسلام مع العلم ، ذلك ليس من التجديد الذي أشار إليه الرسول الكريم في شيء ، بل هي آراء تحوم حول حمى مستحدثات الأمور وبدعها .

بقيت كلمة أخيرة ، لقد أشار إقبال إلى أن باب التجديد قد أغلق في ظروف الغزو التتري الذي خشي معه أئمة المسلمين أن تنهار أحكام الدين مع انهيار الخلافة العباسية لما يقتضيه الاجتهاد من اختلاف في الرأي ، فالإعصار التتري دفع أئمة الدين أن يغلقوا باب الاجتهاد خشية أن تهب أعاصير أخرى ، ويبدو أن ذلك العذر ما زال قائماً بعد أن هبت على العالم الإسلامي أعاصير فكرية وسياسية وعسكرية من الغرب ، وإنْ حق للأئمة أن يجدوا حرجاً في صدور فتاويهم تحت ضغط عوامل غريبة – فذلك حقاً ليس من الاستصلاح أو الاستحسان في شيء – فإن ذلك الحرج لم يدفع عن المسلمين شر البدع ومستحدثات الأمور بل إنه صرف جمهرة المسلمين عن مراعاة أحكام الدين في معاملاتهم. فتح باب الاجتهاد ضرورة لأن الاجتهاد من طبيعة الإسلام

ومصدر من مصادر التشريع فيه وذلك كي لا يكون تجديد إلا في حـــدود الاجتهاد وحتى يميز الناس الخبيث من الطيب .

والله ولي التوفيـــق ...

أحمد محمود صبحي